أبعاد التّخطيط اللّغوي لدى الدّكتور عبد الجليل مرتاض

Prospects of linguistic planning according to Dr. Abdel-Jalil Mortad

د. نجاة بلعباس* 1
جامعة أبو بكر بلقايد، تلمسان (الجزائر)
nadjetdz13@yahoo.com

أ.د لخضر حشلافي2
جامعة الجلفة (الجزائر)
hachelafi2016@gmail.com

تاريخ الوصول 2023.01.30 تاريخ القبول 2023.03.20 تاريخ النشر2023.05.05

ملخص:

يهدف هذا البحث إلى الكشف عن أحد أبرز أعلام الجزائر؛ ألا وهو الأستاذ الباحث عبد الجليل مرتاض هذه الشخصيّة التي عُرِفت بتميّزها وإبداعها في ساحة البحث اللّغوي من خلال جملة من الإسهامات القيّمة والمؤلّفات الرّائقة التي ابتغى صاحبها من ورائها النّهوض بلغة القرآن، مرتكزاً على مجموعة من النّظريات والوسائل التي تكفل حسن اكتساب اللّغة وإكسابها، والمحافظة عليها، ومن هنا نطرح الإشكالية الآتية: فيما تمثّلت آفاق التّخطيط اللّغوي عند الباحث عبد الجليل مرتاض؟ لنتوصّل إلى استخلاص عدّة نتائج أهمّها ارتكاز أعماله على تنمية اللّغة العربيّة وتفعيل التّخطيط اللّغوي السّليم من دون إغفال إقحام تكنولوجيا العصر المتطوّرة في خدمة اللّغة وفروعها، ما أفضى لإتاحة العديد من الإبداعات العلميّة بين أيدي الباحثين والطّلبة، من أجل أن تحظى اللّغة العربيّة بالمكانة التي كانت عليها من قبل في العصور المزدهرة.

الكلمات المتاحية: أبعاد، التّخطيط اللّغوي، اللّغة العربيّة، التنمية، عبد الجليل مرتاض.

Abstract:

This research aims to reveal one of the most prominent flags of Algeria; the researcher Professor Abdel-Jalil Mortad, this personality who was known for his distinction and creativity in the field of linguistic research through a number of valuable contributions and excellent works that he sought to promote the language of the Qur'an, based on a set of theories and means that ensure the good acquisition of the language and its acquisition and preservation. From Here we raise the following problem: What are the horizons of linguistic planning for the researcher Abdel-Jalil Mortad? In order to reach several conclusions, the most important of which is the reliance of his work on the development of the Arabic language and the activation of sound linguistic planning without neglecting the involvement of the advanced technology.

Keywords: Prospects, language planning, Arabic language, development, Abdel-Jalil Mortad.

* المؤلّف المرسل: د. نجاة بلعباس

1. مقدمة:

تعدّ اللّغة عنصرًا فعّالاً في التّواصل بين أفراد المجتمع منذ القدم، بل ظاهرة اجتماعية تسمح بترابط الأجيال بعضها ببعض، فبواسطتها يعبّر الفرد عن أفكاره، ويشيّد آثاره، ويشقّ طريقه في مجال التّجديد والإبداع؛ واللّغة العربيّة باعتبارها من أبرز وأرقى اللّغات في العالم فهي رمز انتماء كلّ عربي، وحفاظه عليها هو حماية لهوّيته وذاكرته ومستقبله؛ وكلّما كان مخزون الأمّة اللّغوي ثابتا متأصّلا فإنّه سيضمن لها حتما ذلك الازدهار الحضاري والثّقافي الذي يمدّ اللّغة هو أيضا بالطّاقة للبقاء والنّمو والوصول للرّيادة.

تشهد اللّغة العربيّة اليوم واقعا لغويّا متعدّدا، فقد ظهرت إلى جانب العربيّة الفصحى عدّة لغات ولهجات أخرى صارت متداولة بشكل مُلفِت، لكلٍّ منها قواعدها وقوانينها التي تميّزها عن غيرها؛ وهو ما ترك أثراً بارزاً على مستعمليها، بحيث تأثّرت بمجموعة من التّغيّرات التي أفرزتها أنظمة اللّغات الأخرى فكادت تتجرّد من خصوصياتها وتفقد مقوّماتها، ودفعًا لهذا الخطر المحدق بلُغتنا نجد أنّ الكثير من الباحثين المهتمّين قد تجنّدوا لحمايتها، ووضعوا جملة من الخطط للنّهوض بها وتنميتها؛ من أمثال الأستاذ الدّكتور عبد الجليل مرتاض، فمن هنا نطرح الإشكالية الآتية: فيما تمثّلت آفاق التّخطيط اللّغوي عند الباحث عبد الجليل مرتاض؟ وتحت هذه الإشكالية تندرج مجموعة من التّساؤلات الفرعية منها: كيف يمكننا وصف واقع التّعدّد اللّغوي للعربيّة، وما هي أبرز انعكاساته؟ وما هي أبعاد التخطيط اللّغوي وبخاصّة لدى الأستاذ عبد الجليل مرتاض؟

ولعلّ ما نبتغي الوصول إليه من أهداف يتمحور حول محاولة تأصيل فكرة المحافظة على اللّغة العربيّة في أذهان الأجيال اللاّحقة؛ فهي تعني المحافظة على الهويّة والذّاكرة، بحيث لا يتأتّى ذلك إلاّ بتضافر الجهود من لدن الباحثين فيها والمستعملين لها من أجل النّهوض بها وتنميتها، ودفع الأخطار عنها، فضلا عن إبراز جهود الباحث عبد الجليل مرتاض في الذّود عن لغة الضّاد عبر جملة من الإسهامات القيّمة التي صارت محورا لأبحاث اللّغويّين من بعده.

وقد اعتمدنا في بحثنا هذا منهجيّة عامّة تمثّلت في تقسيمه إلى محورين أساسيين؛ تطرّقنا في أوّلهما إلى عرض الواقع اللّغوي العربي وما يشوبه من تعدّد لغوي ولهجي، أفرز بروز الكثير من الانعكاسات على لغتنا العربيّة، أمّا المحور الثّاني فقد ضمّ أبرز الإسهامات التي قُدّمت في سبيل النّهوض بالعربية، ولاسيما سياسة التّخطيط اللّغوي من لدن اللّغويّين وعلى رأسهم الباحث الفذّ عبد الجليل مرتاض.

2. واقع التّعدّد اللّغوي للعربيّة وانعكاساته:

حظيت اللّغة العربيّة باهتمام منقطع النّظير لدى العرب منذ عصور الجاهليّة ثمّ صدر الإسلام، فكانت بمثابة اللّحمة التي تجمع بين طيّاتها مختلف البلدان العربيّة، وتعبّر عن تماسكهم وترابطهم «فهي تُرجمان صادق لكثير من الحضارات المتعاقبة التي شادها العرب بجزيرتهم ... وفيها من المزايا التي يعزّ نظيرها في لغات البشر الاتّساع في التّعبير عن الوجدانيات، والوجدان أساس الحضارات والعلوم كلّها»[1] ونتيجة لتوسّع البلاد وانفتاح

العرب على غيرهم من الأمم؛ فإنّ حدّة التّفاعل بينهم قد نمت وازدهرت ومسّت اللّغة الأم، فتغلغلت لغات ولهجات أخرى بين أفراد المجتمع وصارت تُزاحم العربيّة في عقر دارها، فنلحظ أنّ المتكلّمين يعمدون لاستعمال البديل عنها، وهو ما يزعزع تماسكها ويخلخل بنيانها بحكم اختلاف أنظمتها وقواعدها عمّا يوجد بهذه اللّغات الأجنبيّة وكأنّ اللّغة العربيّة الفصيحة يكثر تداولها فقط في المناسبات الرّسميّة، والكتابة، والأدب، والتّعليم، والإدارة، وسائر اللّهجات المحليّة والعاميّة تستعمل في الحياة اليوميّة كالمحادثات التي تدور في المنزل والشّارع[2] فما يلفت الانتباه اليوم أنّ النّاس يُفضّلون استعمال اللّهجات المختلفة للتّعبير عن أغراضهم، ظنّا منهم أنّها أقرب إلى المجتمع من اللّغة الرّسميّة، إضافة إلى ضعفهم البارز في امتلاك الزّاد الكافي لفرض تواجد لغتهم الأم؛ والمبرّر لطغيان مثل هذه الظّواهر إنّما يُعزى للظّروف الـمُعاشة في المجتمعات من اقتصاديّة، واجتماعيّة، وسياسيّة وثقافيّة.

إنّ الدّول القويّة في كلّ زمن تحاول فرض سياستها وهيمنتها على الدّول الضّعيفة وأغلبها من البلدان العربيّة، فتعمد لـمَحْوِ خصوصيات لغتها وطمس هوّية أبنائها وإذابتها ضمن لغة الغالب «والحقيقة التّاريخيّة التي تغيب عن أذهاننا أنّ سبب ضعف العربيّة أو غيابها عن السّاحة العالميّة، أصبح منذ أن أُهملت من الدّوائر الرّسميّة لاسيما بعد الاحتلال الاستعماري للمنطقة العربيّة، وأصبحت لغة المستعمر هي المهيمنة»[3] فلغة المستدمر تحمل في ثناياها إيديولوجيات ومفارقات تسعى في الأساس لزرع الأفكار الهدّامة في نفوس الشّعوب المستعمرة؛ لتوحي لهم بأنّ لغتهم تدعو للرّجعيّة والتّخلف، وأنّه يجب عليهم استبدالها بلغة أخرى أرقى منها تقود حتماً للمدنيّة والتّحضّر، ولنأخذ كمثال ما حدث في بلدنا الجزائر إبّان الاستعمار الفرنسي البغيض الذي سعى بكلّ ما أوتيَ من قوّة للقضاء على رمز الانتماء للإسلام والعروبة وهو اللّغة العربيّة، وإحلال اللّغة الفرنسيّة محلّها حيث اعتبرَ «الإسلام العدوّ الأخطر ويجب إزاحته، وسبيل ذلك استبعاد اللّسان العربي، ومعنى هذا تمزيق الوحدة الثّقافيّة بتغييب اللّغة العربيّة التي ترتبط بالعقيدة، وبالعالم العقلي والثّقافي أي بعالم الأفكار»[4] فوفقاً لهذه الخطط المدروسة للإطاحة باللّغة والدّين فقد عكف الاستعمار على استمالة أبناء الشّعب ثمّ إدماجهم في الكيان الفرنسي ببريقه الزّائف، كما ضيّق الخناق على من تفطّن لهذه الدّسائس فأغلق مراكز التّعليم على اختلاف أنواعها، ومنع تداول الفصحى، وفرض التّعليم بالفرنسيّة كلغة رسميّة أولى ثمّ دعّم العاميّة المخلوطة بهجين من الأمازيغيّة والتّركية، والفرنسيّة لتصبح كلاماً غامضاً لا يكاد يبين له معنى.

ويبدو أنّ التّطور التّكنولوجي اليوم قد أضفى صبغة خاصّة على الوضع اللّغوي العربي، وصار سيفاً ذو حدّين يمكنه أن يبتُر اللّغة العربيّة من الوجود إن لم نتحرّك لتكييفه ومتطلّبات نموّها وتطوّرها، فهي لغة مرنة وغير جامدة بإمكانها استيعاب تقنيات المعلومات، وقد استطاعت مواكبة كلّ معطيات الحضارة الإنسانيّة في مرحلة طويلة من عمر الإنسانيّة ،فكيف تكون عاجزة عن استيعاب الجديد وهي لغة حضاريّة غنيّة بمعانيها الواسعة وتراكيبها المختلفة، وخطّها المبدع ذي الأساليب المتنوّعة[5] فإذا اهتمّ أبناء الوطن العربي بإحياء لغتهم، وتحريرها من التّراكيب الأجنبيّة ودفعها للازدهار ؛فإنّه يمكنهم بناء جيل علمي عربي أصيل يتحدّى كلّ غزو دخيل، أمّا إن هم

استسلموا لتحدّيات العولمة؛ فإنّهم سيتعوّدون حتماً على اللّغة المهيمنة على هذا التّواصل المعلوماتي ويتخلّون شيئا فشيئا عن لغتهم الأم لأنّها في نظرهم لم تعد قادرة على إيصال المعنى الذي يودّون التّعبير عنه.

والمتأمّل في ذا الوضع المعقّد الذي تمرّ به اللّغة العربيّة عبر أقطار العروبة المختلفة، سيلمس تراجعها الملحوظ بعدما تضافرت أسباب كثيرة في دفعها لدوّامة خطيرة يصعب الخروج منها، وقد شكّلت عائقا كبيرا في وجه نموّها في عديد الميادين الحسّاسة، أهمّها المجال التّعليمي أو التّربوي حيث تستعمل المدارس اللّغة العربية الفصحى لتدريس الطّلاب في مختلف الأطوار التّعليميّة، إلاّ أنّ اللّهجات العاميّة ونصيب من اللّغات الأجنبيّة يبقى لصيقا بهم في كلّ تعاملاتهم ومنذ نعومة أظفارهم فالتّلميذ العربي يدخل إلى المدرسة في سنّ السّادسة، وقد أتقن العاميّة قبل هذا السّن، عندما كانت القدرة اللّغويّة الهائلة للدّماغ على اكتساب اللّغات في أوجها، ظنّا منه أنّه تزوّد باللّغة التي يفترض أن يكتسب بها المعارف المختلفة، إلاّ أنّه يفاجأ بأنّها ليست لغة المعرفة ولابدّ له أن يتعلّم الفصحى ويتقنها لكي يتمكّن من فهم المواد المعرفيّة الأخرى[6] فالطّفل داخل مجتمعه الأسري يجد أنّ الحديث كلّه مرهون بالعاميّة فيتعلّمها ويحقّق بها مختلف الأغراض، ليجد نفسه مطالبا داخل مدرسته بإتقان الفصحى بقواعدها ونظمها نطقا وكتابة، فيختلط عليه الأمر ويؤدّي ذلك إلى نفوره منها وعودته للعاميّة، بالرّغم من تلك المجهودات التي تسخّرها الأسرة والمدرسة والدّولة عامّة بأعضائها الفاعلين لإنجاح العمليّة التّعليميّة بالفصحى لا غيرها من اللّهجات فكلّ دولة عربيّة توفّر إمكانيات ماديّة وبشريّة هائلة إلى جانب هياكل الاستقبال من مدارس، وجامعات، ومراكز إقامة مجامع أكاديميّة، ومجالس عليا، كل هذا من أجل تعليمها ، وإثرائها، وترقيتها، ومحاولة تعميم استعمالها؛ إلاّ أنّه وفي كلّ مرّة نجد أنفسنا ندور في حلقة مفرغة، وكلّ ما ينجز فيها يبقى نظريّاً[7] فهذا الأمر قد طغى لغاية جامعاتنا وتفشّى بين طلاّبنا ، والعيب كلّه فينا سواء كنّا طلاّباً أو أساتذة أو مسؤولين لأنّنا لم نكيّف الظّروف حسب احتياجاتنا ولم نحاول قهر الصّعاب، وتيسير استعمال العربيّة، وتدريس العلوم بها، وتعريب المصطلحات الدّخيلة، كما فعلت الكثير من الدّول التي كادت اللّغة فيها أن تندثر فبقي كلامنا حبراً على ورق.

ظفر الإعلام بنصيب هائل من الاهتمام في عصرنا الحالي، فهو بواسطة وسائله المتعدّدة من محطّات البثّ الإذاعيّة، والتّلفزيونيّة، والصّحف، والمجلاّت، والإنترنيت يعمل على تبليغ المعلومات لسائر المجتمعات زمن وقوعها وبسرعة تدفّق عاليّة، إلّا أنّ الخلل يكمن في اللّغة التي يستخدمها لهذا الغرض فلا تكون لتلك المعارف والمعلومات جدوى ما لم تُنقَل للجمهور بلغة فصيحة خاليّة من الشّوائب التي تحفظ للّغة أصالتها، وتصون تراثها، وتبرز شخصيّتها، وترفع مقام أهلها وترقى بحضارتهم[8] فالمتكلّمون اليوم صاروا مشدوهين بوسائل الإعلام أكثر من أيّ مصدر آخر للعلم والمعرفة، وهو ما جعلها تعمد لتوصيل الجديد من المعلومات في أسرع وقت ممكن دون النّظر لطبيعة اللّغة التي تستعمل في ذلك، سواء كانت فصيحة أو عاميّة، مركّبة تركيبا سليما أو خاطئا، وبنيّة حسنة أو بأخرى مضمرة للشّر تسعى لتحقيق أهداف خفيّة، حتّى تفرض سيطرتها على بقيّة اللّغات الأخرى بإضعافها ثمّ تنحيتها نهائيّا من رزنامة اللّغات الحيّة، وتنصيب اللّغة المهيمنة مكانها «فقد أضحت اللّغة من أشدّ الأسلحة

الأيديولوجيّة ضراوة وذلك بعد أن فرضت القوى السّياسيّة، وقوى المال والتّجارة سيطرتها على أجهزة الإعلام الجماهيري التي أصبح وابل رسائلها وهوائياتها يفعل ما كانت تفعله في الماضي منصّات الصّواريخ الموجّهة»[9] فالسيطرة على اللّغة هي بالضّرورة سيطرة على الهوّية والثّقافة، واحتوائها وجعلها تابعة سياسيّا، واقتصاديّا، ولغويّا، وتكنولوجيّا.

وتبعا لكلّ هذه الأوضاع المضطربة فقد حاولت جماعة من الباحثين الغيورين على لغتهم النّهوض بها والحول بين اندثارها؛ إلاّ أنّهم وقعوا في مشكلة معقّدة أكثر ممّا سبق، فقد ظهر فريقان منهم أحدهما يفضّل استعمال مزيج من اللّغات الأجنبيّة لأنّها لغات العلم والتّطور إلى جانب نصيب من العربيّة لغة الدّين، والفريق الآخر ينادي بضرورة تعميم الفصحى في كلّ المجالات الحياتيّة، فأدّى هذا التّضارب في الآراء لانتشار العاميّة كلغة وسط بين العربيّة والأجنبيّة؛ فاستدعى الوضع بالبعض لحدّ المناداة بتفصيحها خاصّة وأنّ بعض الكلمات العاميّة هي في الحقيقة مستوحاة من الفصحى –خصوصا في الجزائر– حيث أنّ «اللّغة الجزائريّة كانت الأقرب دائما إلى اللّغة العربيّة الفصحى منها إلى تلك التّكلمات، وأنّ كثيرا من الألفاظ التي قد نعدّها عاميّة مذمومة مطرحة ما هي إلاّ ألفاظ أفصح ممّا قد نتصوّر، وأنّ عاميتنا الجزائريّة ضاربة بجذورها في عمق الفصحى البعيد»[10] ولكنّ ذلك لن يحدث إلاّ بتضافر الجهود بين الباحثين الملمّين باللّغة العربيّة، والمتحكّمين في قواعدها وآدابها وممّن لهم غيرة على الدّين واللّغة التي نزل بها كتاب الله العزيز.

3. تطلّعات التّنمية والتّخطيط اللّغويَّين عند الأستاذ عبد الجليل مرتاض

يتّضح لنا ممّا سبق أنّ الوضع اللّغوي العربي قد اكتسى طابع التّعدّد، فأفضى لوجود لغات أخرى دخيلة على اللّغة العربيّة كاللّغات الأجنبيّة واللّهجات العاميّة المستقاة منها، الأمر الذي أثّر في الفصحى وجعل تداولها مقتصرا على بعض المناسبات، حتّى أنّ أبناءنا صاروا يتحاشون الحديث بها لاعتبارات عدّة، لذا نحن اليوم في حاجة مُلحّة لوضع مخطّط دقيق لمجابهة هذه المعضلة، ومحاولة تنمية لغتنا وتطويرها بشتّى السّبل الممكنة أفراداً ومؤسّسات، طلاّباً وباحثين، وبمناسبة الحديث عن هؤلاء الحريصين على العربيّة والسّاعين للارتقاء بها إلى مصافي اللّغات العالميّة نورد اسم الأستاذ الباحث عبد الجليل مرتاض الذي يعدّ مثالاً يُقتدى به في تفعيل عمليّة التنمية والتخطيط للعربيّة، ومحاولة رسم سياسة لغويّة ناجحة، تضمن لنا الوصول إلى مساعينا الرّاميّة للحفاظ على رمز شخصيتنا وهوّيتنا العربيّة الإسلاميّة.

وفي محاولة للتّعريف بهذه الشّخصيّة الفذّة سنقتصر على بعض منجزاته التي حقّقها طيلة مسيرة حياته العلميّة والعمليّة، فهو أستاذ حاصل على دكتوراه دولة في الدّراسات اللّغويّة، يعمل أستاذاً حاليّا بجامعة تلمسان، ويشرف على الكثير من رسائل الماجستير والدّكتوراه في اللّغة العربيّة وعلومها، واللّسانيات الحديثة، كما أسهم في تأهيل أساتذة جامعيّين داخل الوطن وخارجه؛ وقد أهّلته مسيرته الحافلة بأن يتقلّد وظائف إداريّة مرموقة منها:

- رئاسة قسم اللّغة العربيّة وآدابها بجامعة تلمسان (1978–1981).

- إدارة معهد اللّغة والأدب العربي بجامعة تلمسان (1981-1984).
- إدارة المعهد الوطني للتّعليم العالي للّغات والأدب العربي بتلمسان (1984-1990).
- عضو اتّحاد الكتّاب الجزائريّين منذ 1988م إلى الآن.
- عضو اللّجنة الوطنيّة لبرنامج اللّغة العربيّة.
- عضو رابطة الأدب الإسلامي العالميّة بالرّياض منذ 1988م إلى الآن.
- عضو المجلس الأعلى للّغة العربيّة منذ 1998م إلى الآن.
- عضو في هيئة التّحرير لكثير من المجلاّت كالمجمع الجزائري للّغة العربيّة والمجلس الأعلى لها.

بالإضافة إلى إثرائه المكتبات العربيّة بمصنّفاته ودراساته وأبحاثه التي مسّت مختلف تخصّصات العربيّة وفروعها، نذكر من بين مؤلّفاته:

- العربيّة بين الطّبع والتّطبيع دراسات لغويّة تحليليّة لتراكيب عربيّة، ديوان المطبوعات الجامعيّة، 1933م.
- التّحليل اللّساني البنيوي للخطاب، دار الغرب، وهران، 2000م.
- تراكيب لهجيّة عربيّة جزائريّة في ظلّ الفصحى، دار الغرب، وهران.
- مقاربات أوّليّة في علم اللّهجات، دار الغرب، وهران، ط2 ،2006م.
- اللّغة والتّواصل، دار هومة، الجزائر.
- دراسات لسانيّة في السّاميات واللّهجات العربيّة القديمة، دار هومة، الجزائر.
- في مناهج البحث اللّغوي، دار القصبة، الجزائر، 2003م.
- مباحث لغويّة في ضوء الفكر اللّساني الحديث، دار ثالة، الجزائر.
- في رحاب اللّغة العربيّة، ديوان المطبوعات الجامعيّة، الجزائر، 2004م.
- البنية الزّمنيّة في القص الرّوائي، ديوان المطبوعات الجامعيّة، 1993م.
- اللّسانيات الجغرافيّة في التّراث اللّغوي العربي، دار الغرب، وهران.
- رواية دموع وشموع، اتّحاد الكتّاب العرب، دمشق، 2001م.
- رواية ما بقي من نعومة أظفار الذّاكرة، دار الغرب، وهران، 2007م.
- رواية أنتم الآخرون، دار الغرب، وهران، 2004م.

فالأستاذ الباحث عبد الجليل مرتاض بالرّغم من كثرة مؤلّفاته وأبحاثه، فإنّه قد تطرّق للحديث عن اللّغة العربيّة وما يتعلّق بها في أكثر من مُؤَلَّف، فكان ممّن أوتوا العلم بأسرارها، وفهموا سنن تنميتها، وخدمة قضاياها، فنجده يُعرّف لنا معنى التّنمية اللّغويّة فيقول:« مفهوم التّنمية اللّغويّة عندنا مفهوم شامل رغم أنّه يتّصل باللّغة اتّصالاً وثيقاً، وذلك لا لشيء سوى لأنّ اللّغة بوتقة تنصهر فيها كلّ مظاهر التّنمية الصّناعيّة، والاجتماعيّة،

الثّقافيّة، والاقتصاديّة إلى مظاهر الفكر الخلاّق والإبداع الأصيل»[11] فاللّغة تتناقل بين مستعمليها في أيّ مجتمع من المجتمعات، سواء في المؤسّسات أو الإدارات والمعاهد التّربويّة والتّعليميّة وكذا وسائل الإعلام المتباينة، وكلّ فرد من أبناء الأمّة لابدّ له أن يُحاول انطلاقا من موقعه، أن يُسهم في عمليّة التّنمية التي تستجيب بالضّرورة لاحتياجات ذات طبيعة سياسيّة، واقتصاديّة، واجتماعيّة، وثقافيّة موجّهة لخدمة هدف موحّد.

وما التّخطيط اللّغوي إلاّ سياسة من السّياسات اللّغويّة النّاجعة شأنه شأن سائر أنواع التخطيط اللاّزمة لكلّ دولة يهتمّ «بدراسة ما له علاقة باللّغة من مشكلات لغويّة عادة ما تكون سبباً في إعاقة تطوّر اللّغة، كتوحيد المصطلحات أو ترجمتها أو تعريبها»[12] فهو برنامج مُعدّ بإتقان لدراسة العلاقة بين اللّغة والمجتمع حيث يسعى أفراد هذا الأخير إلى تطوير لغتهم وصونها من الضياع أو التّحريف، وذلك بتطبيق مجموعة من الضّوابط والقواعد التي ستحقّق الهدف المنشود، وتؤكّد على تمكين العربيّة الفصحى من الألسن نطقاً وكتابةً.

أثرى هذا الباحث حقل الدّراسات بكثير من الأفكار والآراء القيّمة التي تصلح لأن تكون وسائل فعّالة لتنمية اللّغة العربيّة، ما إن تضافرت الجهود لتطبيقها على أرض الواقع؛ منها قضيّة التّعريب وتكييفها لخدمة لغتنا الأم باعتبارها مسألة جوهريّة تتعلّق بثقة الطّالب والمواطن في لغة آبائه وأجداده، وبتنمية اللّغة من الدّاخل وإثرائها بمصطلحات لا حصر لها، وبخدمة التّعريب الذي يعتبر عمليّة لغويّة كلّية شكلا ومحتوى، فضلا عن فساد الفكر وبثّ روح الاتّكاليّة دوماً على كلّ ما هو أجنبي حتّى في الرّموز والأشكال[13] فلغتنا العربيّة غنيّة وثريّة بمصطلحات كثيرة لا حدود لها، وعمليّة التّعريب ما هي إلاّ عمليّة لغويّة مكمّلة للتّحصيل العلمي، المرتبط باختلاف الأمكنة والأزمنة، يقوم بها لغويّون مختصّون من أجل إضفاء المزيد من المصطلحات على اللّغة الأم وفق قواعدها ونظامها؛ في مسار يضمن لها الانفتاح على سائر لغات العالم، فتتأثّر وتؤثّر وتُسهم في إغناء الثّقافة العالميّة دون أن تبقى منزوية منكمشة تخشى فقدان خصوصيتها وسط تشويش اللّغات الأخرى عليها، وأمّا الاستعانة بلغة الآخر في التّخاطب والإبداع أمر لا هروب منه لأنّها لغة أدبيّة وحضاريّة، تحفل قبل كلّ شيء بما يعايشه صاحبها ويحيط به ويوظّفه لأدنى احتياج من احتياجاته الحسّية[14] بعيدا عن التّعصّب الذي يؤدّي إلى الجمود والتّحجّر، وبالتّالي الحدّ من النّمو المعرفي والتّفاعلي للّغة بسائر مثيلاتها.

يقع جانب كبير من المسؤوليّة على أبناء الوطن العربي في كيفيّة دفع مضرّات اللّغات الأجنبيّة عن اللّغة الأم، ومنعها من الانصهار والذّوبان في القالب اللّغوي الأجنبي، ودليل ذلك أنّ أرقى اللّغات في العالم تقترض من غيرها بعض الاصطلاحات، والمفردات لتُثري رصيدها وليس في الأمر عيب، وإنّما هي تعرف حقّ المعرفة ما تأخذه وكيف توظّفه حتّى تحافظ على هوّيتها ولذلك فإنّ اللّغة العربيّة هي أيضا في حاجة إلى جهاز يراقب هذا الاقتراض، ولعلّ أفضل من يتولّى أمر هذا الجهاز المؤسّسات اللّغويّة والأكاديميّة المختصّة كالمجامع اللّغويّة في الدّول

العربيّة[15] فإلى جانب قناعة أنفسنا بالقيمة الحقيقيّة للّغة العربيّة، يجب أن تتّحد جهود المنظّمات اللّغويّة من مجالس ومجامع ومخابر، بأفكار باحثيها النيّرة لتحقيق تعايش لغوي يُفيد اللّغة ولا يضرّها.

كما لا ننسى كذلك أنّ اللّغة العربيّة هي لغة الدّين والدّنيا، باستطاعتها أن تفيَ بإيصال كلّ ما نريد تبليغه للغير دون العدول عنها للغات أخرى، فالقرآن الكريم مثلا يمثّل أساساً متيناً يستطيع الاتّساع بالعربيّة وقد كان حافزاً ومحفّزاً لا مثيل له، وجعل كلّ الطّبقات من العلماء والمختصّين يدرسونه ويتدارسونه ثمّ يؤلّفون ويبدعون ويذلّلون السّبل، لنتميّة لغويّة شاملة لاحقة في كلّ الفنون والعلوم، حيث صنّفوا المثير في مشكله وتفسيره وغريبه ومعانيه ونزوله ومجازه[16] فمن خلاله اقتبس العرب الكثير من المصطلحات الجديدة الفصيحة والبليغة التي ارتقت بالعربيّة وجعلتها لغة البيان والإعجاز، ومنحتها الرّيادة بين الأمم.

إنّ أفضل ما يُكرّس دوام هذه اللّغة في الاستعمال، هو سعينا الدّائم للتّخاطب بواسطتها فتتحقّق كمنظومة حاملة لتراث الأمّة الحضاري «فالوجود اللّغوي متى قاطعه الاستعمال أصبح عرضة للتّلف والإهمال، ولاسيما بالنّسبة لمجتمع بدوي يغلب عليه التّواصل الشّفوي المطلق، والاكتساب اللّغوي على السّماع والتّجربة المتكرّرة والعادات البلديّة والشّعبيّة في الاتّصالات والخطاب، إنّ اللّغة تحيا بالاستعمال لا بالدّماغ الذي هو جهاز تكلّف بهذا الاستعمال»[17] فإن نحن لم نتخاطب بالفصحى في سائر ميادين حياتنا، فإنّها ستبقى حبيسة الكتب وتغيب عن عمليّة تواصلنا، ممّا يؤدّي لضياعها واستبدالها بلغات ولهجات أخرى لا ترقى للمستوى المطلوب «ذلك أنّنا ما سمعنا مواطنا جزائريّا رسميّا خارج الرّسميات، ولا مواطنا شعبيّا خارج المدارس والجامعات، تنحلّ عقدة لسانه بجملة عربيّة واحدة مستقيمة إلاّ نادرا وفلتة، ممّا حافظت عليه البنية السّليمة للّغة العربيّة الطّبيعيّة، حتّى أضحى اليوم العجب باديًا على ألسنة قلّة ممّا يتحفّظون في اللّحن في المحافل والمنتديات والقمم، من متحدّث عربي يراقب لسانه من اللّحن»[18] حيث أنّ الجزائري يتكلّم خليطا من لغة المستعمر الفرنسيّة، واللّغة العربيّة الفصحى، وبعض من اللّهجات المحليّة، لتبقى الفصحى للتّواصل الرّسمي فقط كالتّعليم والإعلام، فيتضاءل التّعامل بواسطتها وتنفر الأجيال منها ويضعف رصيد الإبداع فيها.

لذلك لابدّ من الحرص على تفعيل مزاياها حتّى لا تتوقّف وظيفتها، لجعلها اللّغة الرّسميّة في تعاملاتنا الحياتيّة واليوميّة، ولنحرص على دوامها واستخدامها بشكل عفوي صحيح بعيدٍ عن الأخطاء التي قد تقدح في المتكلّم بها، لا لشيء سوى لأنّها « لغة العرب، قطعة من وجود العرب، وميزة من ميزات العرب، ومرآة لعصورهم الطّافحة بالمجد والعلم والبطولة والسّيادة، فإذا حافظ الزّنجي على رطانته، ولم يبلغ بها بديلا، وحافظ الصّيني على زمزمته فلم يرض عنها تحويلا، فالعربي أولى بذلك وأحقّ، لأنّ لغته تجمع بين خصائص البيان ما لا يوجد جزء منه في لغة الزّنج أو لغة الصّين، ولأنّ لغته كانت -في وقت ما-لسان معارف البشر، وكانت -في زمن ما- ترجمان حضارتهم...هادية العقل الغربي الضّال إلى موارد الحكمة في الشّرق...وما زالت صالحة لذلك، لولا غبار من

الإهمال علاها وعاقّ من الأبناء قلاها، وضيم من لغات الأقوياء المفروضة دخل عليها، وهي قبل وبعد كلّ شيء حاضنة الإسلام، ودليله إلى العقول ورائده إلى الأفكار»[19] ففي هذا القول نلمس قوّة وصف الإمام الإبراهيمي لخصوصيّة لغتنا العربيّة، ومحاولاته للدّفاع عنها وحمايتها من خلال تنبيه الأجيال المتعاقبة لمدى الخطر المحدق بها من لدن لغة الأقوياء التي تودّ إذابتها في بوتقتها، يقابلها الإهمال المتواصل من طرف أبنائها، إلاّ أنّها وسط هذه التّجاذبات لغة قويّة في جذورها لن تركن بسهولة فلابدّ لنا من الذّود عنها والتّخطيط لمستقبلها.

4. خاتمة:

بعد هذه الدّراسة التي تمثّلت في التعرّف على أحد ألمع الشخصيّات اللّغوية بالجزائر التي طارت شهرتها في الآفاق، نعم نحن نقصد اللّغوي عبد الجليل مرتاض، ذلك الباحث الذي جسّ نبض واقع اللّغة العربيّة ولامس مواطن الخلل والضّعف فيه، فانبرى وسائر الباحثين مثله إلى تسخير طاقاتهم لخدمة هذه اللّغة، فقدّم إسهامات جليلة في مجال التنمية وآفاق النّهوض بالعربية ودفعها إلى التقدّم والازدهار، ومن هنا نخلص إلى مجموعة من النّتائج هي كالآتي:

- شهد الوضع اللّغوي العربي تعدّداً لغويّا واضحا، أدّى لظهور لغات أجنبيّة ولهجات عاميّة بالموازاة مع الفصحى، فتغلغلت بين أبناء المجتمع وصارت متداولة بكثرة.
- أفضى التّعدّد اللّغوي العربي لعدّة مشاكل مسّت ميادين حسّاسة في المجتمع، فضعف أداء العربيّة الفصحى وكادت أن تذوب ضمن لغات أخرى أقوى منها.
- قيّض اللّه للعربيّة لّغة الدّين والدّنيا عدداً من الباحثين الغيورين عليها من أمثال الأستاذ عبد الجليل مرتاض الذين أَبَوْ إلاّ أن يحاولوا حمايتها، ويمهّدوا السّبل لتنميتها، بما جادت به قرائحهم ودراساتهم في مجالها.
- استطاع الأستاذ الباحث عبد الجليل مرتاض أن يصوغ عددا من الآراء والأفكار ضمن عمليّة التّخطيط اللّغوي التي تضمن لنا –إن نحن ضافرنا جهودنا جنبًا لجنب– تنمية لغويّة سليمة تمكّننا من تطوير لغتنا، والسّعي بها قدما نحو الانفتاح والازدهار، ومواكبة تطوّرات العصر.

وقبل أن نضع نقطة نهاية هذا البحث لابدّ أن نؤكّد على أهمّية هذا الموضوع وقيمته في ربوع كلّ أمّة، فالمحافظة على اللّغة تعني المحافظة على الهويّة والدّين والوطن، وهي قيم ومرتكزات بات لزاما علينا أن نرسّخها في أذهاننا وأذهان الأجيال اللاّحقة، ولذلك ينصبّ اقتراحنا حول الحرص التّام على تلقين المتعلّمين اللّغة العربية الفصحى، والحث على التعامل بها في كلّ مكان للتخفيف من وطأة سائر اللّغات واللّهجات على اللّسان العربي، فضلا عن محاولات التعريف بسير مختلف اللّغويّين البارزين وبمؤلّفاتهم وأعمالهم القيّمة، وعرض سياساتهم اللّغوية التنمويّة لتدارسها والسّير على منوالها لخدمة اللّغة العربيّة في كلّ زمان ومكان.

5 . قائمة المراجع:

- أحمد طالب الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج1، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1997م.
- أحمد محمد المعتوق، الإعلانات التّجاريّة وأثرها في لغتنا، مجلّة الفيصل، السّعودية، العدد209، 1994م.
- راتب مزيد الغوثاني، البعد الثّقافي والاجتماعي والاقتصادي لاستعمال اللّغة العربيّة في المعلوماتيّة، مجلّة استخدام اللّغة العربية في المعلوماتيّة، المنظّمة العربيّة للتّربية والثّقافة والعلوم، تونس، 1996م.
- عبد الجليل مرتاض، العربيّة بين الطّبع والتّطبيع دراسات لغويّة تحليليّة لتراكيب عربيّة، دط، ديوان المطبوعات الجامعيّة، الجزائر، 1933م.
- عبد الجليل مرتاض، تجارب عربيّة في تفصيح العاميّة، مجلّة اللّغة العربيّة، المجلس الأعلى للّغة العربيّة، الجزائر، العدد10، 2004م.
- عبد الجليل مرتاض، في رحاب اللّغة العربيّة، دط، ديوان المطبوعات الجامعيّة، الجزائر، 2004م.
- عبد الجليل مرتاض، مباحث لغويّة في ضوء الفكر اللّساني الحديث، دط، دار ثالة للنشر، الجزائر، دت.
- عبد اللّه الدّنان، نظريّة تعليم اللّغة العربية بالفطرة والممارسة وتطبيقاتها وانتشارها، مجمع اللّغة العربيّة، دمشق، المؤتمر السّنوي السّادس، 2007م.
- عمّار طالبي، وضع اللّسان العربي في الجزائر، مجلّة الحياة الفكرية، إشراف محمود السيّد، الهيئة العامّة السّورية للكتاب، دمشق، العدد2، 2009م.
- مراد عميروش ودليلة صاحبي، آراء الباحث الجزائري الأستاذ الدّكتور صالح بلعيد في مسألة التّخطيط اللّغوي من خلال مؤلّفاته ودراساته، أعمال الملتقى الوطني الثّاني حول التّخطيط اللّغوي، ديسمبر 2012م، مخبر الممارسات اللّغوية، كلّية الآداب واللّغات، جامعة مولود معمري تيزي وزّو، الجزائر، ج2.
- نبيل علي، الثّقافة العربيّة وعصر المعلومات، دط، عالم المعرفة، الكويت، 2001م.

الهوامش:

[1]- أحمد طالب الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج1، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1997م، ص374.

[2]- ينظر مراد عميروش ودليلة صاحبي، آراء الباحث الجزائري الأستاذ الدّكتور صالح بلعيد في مسألة التّخطيط اللّغوي من خلال مؤلّفاته ودراساته، أعمال الملتقى الوطني الثّاني حول التّخطيط اللّغوي، ديسمبر 2012م، مخبر الممارسات اللّغوية، كلّية الآداب واللّغات، جامعة مولود معمري تيزي وزّو، الجزائر، ج2 ،ص269.

[3]- عبد الجليل مرتاض، مباحث لغويّة في ضوء الفكر اللّساني الحديث، دط، دار ثالة للنشر، الجزائر، دت، ص26.

[4]- عمّار طالبي، وضع اللّسان العربي في الجزائر، مجلّة الحياة الفكرية، إشراف محمود السيّد، الهيئة العامّة السّورية للكتاب، دمشق، العدد2، 2009م، ص96.

[5]– ينظر راتب مزيد الغوثاني، البعد الثّقافي والاجتماعي والاقتصادي لاستعمال اللّغة العربيّة في المعلوماتيّة، مجلّة استخدام اللّغة العربية في المعلوماتيّة، المنظّمة العربيّة للتّربية والثّقافة والعلوم، تونس، 1996م، ص233.

[6]– ينظر عبد اللّه الدّنان، نظريّة تعليم اللّغة العربية بالفطرة والممارسة وتطبيقاتها وانتشارها، مجمع اللّغة العربيّة، دمشق، المؤتمر السّنوي السّادس، 2007م، ص11.

[7]– ينظر عبد الجليل مرتاض، تجارب عربيّة في تفصيح العاميّة، مجلّة اللّغة العربيّة، المجلس الأعلى للّغة العربيّة، الجزائر، العدد10، 2004م، ص63.

[8]– ينظر أحمد محمد المعتوق، الإعلانات التّجاريّة وأثرها في لغتنا، مجلّة الفيصل، السّعودية، العدد209، 1994م، ص112.

[9]– نبيل علي، الثّقافة العربيّة وعصر المعلومات، دط، عالم المعرفة، الكويت، 2001م، ص(232، 233).

[10]– عبد الجليل مرتاض، تجارب عربيّة في تفصيح العاميّة، ص32.

[11]– عبد الجليل مرتاض، العربيّة بين الطّبع والتّطبيع دراسات لغويّة تحليليّة لتراكيب عربيّة، دط، ديوان المطبوعات الجامعيّة، الجزائر، 1933م، ص 133.

[12]– مليكة النوّي، التّخطيط اللّغوي والنّظام التربوي بين الواقع والمأمول، أعمال الملتقى الوطني الثّاني حول التّخطيط اللّغوي، ج2، ص12.

[13]– ينظر عبد الجليل مرتاض، العربيّة بين الطّبع والتّطبيع دراسات لغويّة تحليليّة لتراكيب عربيّة، ص167.

[14]– ينظر عبد الجليل مرتاض، في رحاب اللّغة العربيّة، دط، ديوان المطبوعات الجامعيّة، الجزائر، 2004م، ص41.

[15]– ينظر عبد الجليل مرتاض، في رحاب اللّغة العربيّة، ص39.

[16]– ينظر عبد الجليل مرتاض، العربيّة بين الطّبع والتّطبيع دراسات لغويّة تحليليّة لتراكيب عربيّة، ص 158.

[17]– عبد الجليل مرتاض، مباحث لغويّة في ضوء الفكر اللّساني الحديث، ص(65، 66).

[18]– عبد الجليل مرتاض، في رحاب اللّغة العربيّة، ص47.

[19]– أحمد طالب الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج3، ص281.